الجزء الثالث

الفصل الثالث

من كوكب الحفل؟ من هي تلك الساحرة العينين المخضبة الشفاه، البراقة الثغر، ذات الصوت الشجي القوي النبرات يهـز الأفئـدة، والحركـات الرشيقة؟. وتهامست نساء بيت جالا عمن تكون ورسمن عليهـا شـارة الصليب لتحميها من غائلة الأعين الحاسدة.. ودوت الأكف بالتـصفيق.. وصفق قلب سلمى، وطفح صدر والدتها ابتهاجا ودنكـا تهتـف فرحـا، وجوتا ونينا ينثران عليها الورود..

انها رجاء سفرت عن فتنة ولألاء تبهر بما حليت وتوجـت بـه، وبمـا ارتدت واعتطفت من استبرق وحرير وقطيفة..

لحظات حافلة بالغبطة.. مثلت رجاء فيها دور الملكة زنوبيا.. وانتهـت المسرحية برقص ريفي ثم أغنية قامت رجاء بإدائها، وانتهـى برنـامج الحفل بالنشيد الوطني، وتوزيع الهدايا على أوائل الصفوف..

وهناك في طرف المسرح حيث جلس أعيان بيت جالا ورئيس بلديتها تقدمت رجاء في الطليعة وهي ترتدي ثوبا مـن الأورجنـدي الأزرق، وتحمل بيسراها باقة زهر في غلالة شفيفة قدمتها للرئيس بابتسامة رقيقة وهزت يده بيمناها.. وانتخبت لها أثمن هدية: صينية من خشب الزيتـون صنع مدينة المهد "بيت لحم" شقيقة بيت جالا المجاورة..

ورفعتها ليراها الجميع، وانحنت برشاقة وسط عاصـفة مـن التـصفيق تاركة المسرح الى حيث جلس أهلها في الصف الأول.. وقبلها الجميـع مهنئين..

وجاء دور سعاد ترتدي على غرار رجاء ودنكا ثوبا مـن الأورجنـدي الأزرق، ثم دور هشام يبنطلونه من القطيفة السوداء وقميصه الزهـري، وكل هذه الثياب من خياطة سلمى ومالها، وكان لكل من سـعاد وهـشام

هدية لطيفة: علبة لأدوات الخياطة لسعاد، ومقلمة لهشام، وكلها من خشب الزيتون.. وكان لهما مثل رجاء من القبلات والتهاني.. صـورة حيـة.. رائعة لمن يشاهد لا لمن يسمع..

لشد ما عناها القرار ولشد ما فدح أعصابها.. ولكنها شجعت له فمـا ينبغي لها أن تتراجع..

انه يوم عيد الأضحى.. ولقد أعدت بنفسها قالب جاتو لأحمـد بينمـا قامت أمها بصنع كعك العيد من معمـول وغريبـة وكعـك بـالعجوة.. وتزينت للعيد باعتدال، ولكنها بالرغم من هذا فقد بـدت فاتنـة بثوبهـا الحريري ذي اللونين الذهبي والبني وشعرها المنـسدر ببـساطة علـى كتفيها.. وألقت نظرة على هديتها.. ساعة فضية اشترتها بثمن قـصتين لها.. انه لا يعلم شيئا بعد عن خطواتها الأولى في ميدان الأدب.. ومـا كان ليقرأ المجلات المحلية ليراوده الظن بها..

حسنا! يجب أن يكون الوداع نبيلا رقيقا..

اتكأت على النافذة ترقب قدومه، وصدرها يئن بهمومـه.. لـن يـرى الطريق المشجر القوام الفارع يخطر فوقه باعتداد ثابت الخطوات، ولـن تقف وقفتها تنتظره مرفرفة الأشواق..

وأخذت تغالب دمعها بابتسامة.. لا يحسن بها أن تلتهـف فتبـدد مـا حشدت من رباطة جأش للموقف العصيب..

وبدا مقبلا يزفّ، فأسرع وجيب قلبها.. انه لها وهي له فلـم تعبـث عبثها الأقدار؟.. حقا هناك بعض الاختلاف في الميول بينهمـا، ولكـن كلاهما يكمل الآخر..

وراحت ترمقه وهو يبدو ويختفي بين الأشجار، وما كاد يقترب حتـى أسرعت إليه تقفز الدرجات الثلاثة إلى باب الحديقة.. ما عرفـت كتلـك اللحظة لمشاعرها ثورة.. لقد كانت من قبل تسري في حناياهـا لطيفـة كالنور، هادئة كجدول رقراق.. وتناولت يديه الممتدتين تضغط عليهمـا بشدة..

كان كعهده مشرق الوجه، متلألىء العينين، غبطة وانفعالا وحاولت أن تبدو مثله مرحا، فأفلحت وهما على المائدة يلتهمان كعكة العيد.. وأفلحت وهي في غرفة الاستقبال أن تخفي هديتها خلف رأسها، وتحـزره مـاذا تكون.. فيجيبها وهو يغيب يديه في جيبه:

- بل احزري انت ماذا تكون هديتي؟..

كانت هداياها من قبل زهيدة الثمن، لا تعدو على أن تكـون وردة أو ربطة عنق، أو قلم حبر أو كتاب عن سير الأبطال الذين يحـبهم.. ومـا كادا يتبادلان الهدايا حتى شهق كلاهما، وهتفا معا:

- يا إلهي أي توارد خواطر!..
- لا أحب أن أكلفك هكذا!.. وتلألأت ابتسامة الهناءة على شفتيها:
- ثق أني لا أهديك شيئا إلا بمال حصلت عليه بجهدي..
- إنك لا تعملين؟..
- هذا سر لن أطلعك عليه فلا تتعب نفسك؟..

وكادت الدمعة تطفر من عينها وهي تنزع ساعته القديمة، وتودعها جيبه، وتطوق رسغه بالجديدة:

- حتى تنساني يا أحمد كل لحظة؟.. وضحك وهو يتناول يدها ويقول:
- حتى تعدي الدقائق والثواني في انتظار حفلة القران في مثل هذا اليوم من الشهر المقبل!..

ووجمت لا تنبس بحرف.. ولم تدري ما تقول!..

- هل تريدينني على الانتظار طويلا أيتها الشريرة؟.. لقد أعددت كل أمـر ولم يبق إلا بعض قطع الأثاث ولن يستغرق صنعها أكثر من شهر..
- أحمد!.. لقد أعددت انت نفسك ولكني لم أعد أنا نفسي بعد..
- أعجلي الخائطة بالملابس الضرورية وليس لزاما أن ينتهي كل شـيء.. فأجابت بابتسامة حزينة:

- لست هذا أعني يا أحمد.. إن الأمر لأدق.. لم أعد جسدي لحبنا العظـيم فاغفر لي هذه الإساءة التي جنيتها بحقّك وبحق نفسي.. سأحملك كثيـرا، وأفجع على رغمي مأملك..

وغصت بالكلمات وحار القلق في عيني الشاب وأمسك بذراعها:

- ماذا تقولين؟.. أما تناهينا في المهلة؟..

واستعادت الابتسامة التي جفّت على شفتيها وفي عينيها دمعـة كبريـاء مقهورة:

- نعم يجب أن نفترق يا أحمد.. هكذا أشار الطبيب!.. إنني لا أستحقّك الآن بظروفي الحاضرة.. أمامي صراع في سبيل استعادة قواي كاملة لـست أدري كم يطول، ولا أريدك على انتظار.. بل أقسم عليـك أن لا تقيـد نفسك بكلمة أو وعد يلزمك على وفاء..
- سلمى!.. لم هذا الإحراج؟..
- لا تنس أن الإخلاف ألد عداك.. وأنا أحب ان أطمئن على إنقـاذك مـن نفسك العسيرة الحساب..

وراحت أنامله تعبث بشعره دأبه إذ يستغرق في تفكير عميق:

- سلمى!.. لن اتراجع عما قررت.. نتزوج زواجا صوريا وأعتنـي بـك بنفسي..

وتضاحكت سلمى تعابثه:

- كنت تتهمني بأنني غير واقعية وأنت أولى بهذا الاتهام مني اليوم..
- سلمى!.. لا ترفضي هذا الحل..
- بل أرفضه بغير تردد.. إنها تضحية أنت فيها مغبون وأنا فيها شـقية.. المطال يشجي ولو قدرت عليه، وسأموت غما وأنا أرى حبنـا العظـيم يجفّ في مجاري الإشفاق الهزيلة.. كنت أتمنّى لو أهبك كثيرا.. كل مـا املك من مفارح الروح والجسد.. فالحب جنّة لكليهما وليس ملجأ أعوذ به وأفرشه بأشواك تعاستي..

وفاضت عيناها بالدموع ولكن الابتسامة لم تفارق شفتيها:

يجب أن يكفّ كلانا عن رؤية الآخر.. وثق أنني سأحمل فـي أعمـاقي خيالك وأمل لقاك إن شاءت الأقدار أن ألقاك.. وتكون نـشوة لحظـاتي وثباتي في وجه الخطوب وحافزي للحياة القوية..

- بل يجب أن أراك أيتها المجنونة الصغيرة!..
- لن أسمح بهذا أبدا.. لقد غدا وضعنا شاذا.. فإن كنت حقا تحبني فعدني يا احمد انّك تفعل وعد حر..
- عشرة أميال سرتها مشيا على الأقدام معرضا للقتل نفـسي يـوم منـع التجول، كي اراك لحظة وأعود ولا أتركك فريسة للقلق.. سـريعا مـا تنسين!..
- لا لم أنس.. بل هذا ما أخشاه.. يجب أن تتعلّم فراقي منذ اليوم فمن يدري أنه لا يكون فراقا يطول..
- كفى سلمى!..
- بل ولا تنتظر أن تسمع مني.. فليس لدي ما أقول، ولا تشغل نفسك بـي فأهدافك أجدى على الحياة من التفكير بي.. ولا تدعني حجر عثرة فـي سبيل أمل اختلج في نفسك فمنذ هذه اللحظة ليس لي عليك حقّا ولك علي حق الوفاء..
- كفى هذا كثير!..
- وإنه لكثير علي، ولكنني سأحتمله فجدير بك أن تحتمله أنت الآخر.. إنني أكره مظاهر البؤس والضعف والانحلال في كل شيء حتى فـي نفـسي لأنها تعذبني فوق العذاب، حين أجـد نفـسي عـاجزة عـن إزالتهـا.. وأكره أن تراني بائسة ضعيفة واهنة.. أكره الإشفاق في الحب يا أحمـد ولا أريد مزيدا من العذاب حتى في قوتك ما يذلّني.. ودمعـت واختنـق صوتها..
- سلمى!.. وراح يمسح دمعها بأنامله فاستعادت بسمتها..
- لا يجب أن أبكي.. لست أدري ما يكون من شأني، ولكنني حريصة على أن يبقى أنسان على الأقل، لا يتمثلني إلا رائعة لناظريه..

واغرورقت عيناه بالدموع:

- ويحي من تعس.. دعيني أمسح دمعك بشفاهي أيتها الكافرة، وأبكي قلبي المنفطر على كتفيك!..

وفي ذلك اليوم استودعا الأماكن الحبيبة لكليهما، وكان فراقا هادئا، ولما حاول أن يبقي يدها طويلا أفلتت مسرعة، ملوحة له خوف أن تخونهـا دموعها.. وكان عليها أن تكاتم في المنزل دموعها حتى أسـدف الليـل وحوتها حجرتها، فانتضت قناع التمثيل عن أشلاء قلبها، وراحت تبكي ما شاء لها البكاء.. ولما حاول عبد الرحمن أن يعرف ما بهـا، لـم تحـر جوابا.. وحين ألحف بالسؤال أجابت:

- لقد انقطع ما بيني وبين أحمد، فان كنت تحبني فلا تسألني لم، ولا تحاول أن تستفسر، ولا تسمح لأحد أن يجرح قلبي بذكر هـذه الأمـور مـرة أخرى.. فمنذ الغد سأكون انسانة جديدة، وأدخل المعهد العالي للإستعداد للعمل الصحفي..

حزمت أمرها على الإنهماك بعمل يستهويها، وأحاطت نفسها1 بجو جديد في المعهد لا يترك لها مجال التفكير بمأساة قلبها.. كل ما في الحياة من أحزان وأفراح تأتي على فترات.. فلا حزن ولا فرح صرف.. ولا حزن ولا فرح يعدوان الطور، والاّ كان جنون.. والجنون نفسه راحة.. الكبيعة حكيمة.. وسلمى ابنة الطبيعة والفطرة، فلتضع نفـسها أمـام امتحانهـا الصارم، فإما نصر باهر أو هزيمة ماحقة ولا حـد وسـط.. سـتجاري الطبيعة في غذائها، ولن تستمع الى أوامر الطبيب.. لن تأكل حتى تجوع، والاّ ما تشتهيه.. ولن ترهق معـدتها بمأكـل غنـي أو دواء مقـو، أو فيتامينات.. وراحت تغتسل كل يوم بالماء البارد، وتتـريض بالمـشي، وتحمل الفأس لتنكش الأحواض، وتكفّ حين تشعر بالتعب.. وتسهر حتى تكتب قصة قصيرة، وتنام حين يغلبها الوسن.. لا تستمع الى نصيحة ولا الى لوم بأنها بتصرفها تنتحر وتعجل منيتها..

لقد آلت على نفسها أن تفهم سر الطبيعة في جسدها.. فلكل انسان مـا يلائمه، وستكتشف بنفسها ما يلائمها.. فلتكن طبيبة جسدها كمـا كانـت دائما أستاذة نفسها.. التوتر والهيجان ألد أعدائها.. فكانا أول ما حاولـت أن تتخلص منهما ومن مسبباتهما.. فلا قـراءات ولا أفـلام محزنـة أو مثيرة، ولا التفكير بشيء مثير أو محزن.. حتى أنها لم تكن تحـاول أن تلقي نظرة على صور أحمد خوف أن يتجدد ألمها.. ولكنها في يوم لـج بها الشوق اليه فضعفت ارادتها، وراحت تبحث عنها في درجهـا بغيـر جدوى فهتفت مغضبة:

- من يعبث بدرجي؟

وكانت رجاء أمام المرآة في غرفة النوم تقيس أثوابها التي هيأتهـا لهـا سلمى لدخول دار المعلّمات اذ نجحت بتفوق منقطع النظيـر، لا علـى طالبات مدرستها في بيت جالا بل على جميع الطالبات اللـواتي تقـدمن لنفس الإمتحان.. فسألتها بابتسامة ماكرة:

- أتعنين صور أحمد؟ لقد أحرقتها!..

وكادت سلمى تتميز من الغيظ، وأحست لأول مرة بسخط غريب علـى أختها، وجابهتها متجهمة الوجه:

- أحقا فعلت!.. لقد تماديت كثيرا يا رجاء في أشياء لا تعنيك!..

وكان هذا كافيا ليملأ بالروع قلب الفتاة، فتلتفت ملتهفـة وقـد اخـضلّت عيناها، وتطوق عنق أختها:

- أختاه! هل كرهتني؟

- معاذ الله يا رجاء.. ولكنني لا أكتمك أنني تألمت كثيرا منك..

وهتفت بحماس بريء وإشارات مؤكدة:

- هذا الشاب لا يستحقّ قلبك النبيل.. هذا رأيي فيه، ولكنني كنت أخشى أن أصارحك به..

- لا تحكمي على الظواهر يا أختاه..

- انني أعرف شيئا.. أعرف أنه أبكاك.. ووالله ألف مثله لا يستحقون دمعـة تذرفها عيناك.. ولم أجد ما أنتقم به منه سوى صوره.. فشفيت بها غليلي..

وما استطاعت سلمى الاّ أن تغضي عن ذنبها والحب رائده وتـوارى أوار غضبها، فابتسمت، وعادت رجاء الى تطويقها وهي تتنفس الصعداء:

- أواه! ضعي يدك على قلبي.. لقد متّ رعبا أن أكون قد أغضبتك!..

* * *